

القناع

أ.د. عدنان ظهاسبى

علي حمزطن

المقدمة :

شهد المجتمع المصري خاصة و العربي عامة ، بعد حملة نابليون على مصر ، تصدعاً مفصلياً ، إذ انقسمت النخبة إلى فريقين ، بعضهم وقف مع التراث ، و عادى آخرون ما جاءت به حملة نابليون . إذ يرى هؤلاء في المستورد الفرنسي خاصة والخارجي عامة ما هو يعادي الموروث العربي الاسلامي ، فيما تبئى البعض الآخر الأهداف الثقافية التي رافقت هذه الحملة ، حيث انفتحوا من خلالها - رغم تهميش قيمهم الموروثة - على أساليب جديدة في الحياة ، وأصروا على تقليد الغرب كي تنهض بلادهم ، ويتخلصوا من الجهل المطبق عليهم ، وفي هذا الخضم ، ومن خلال ظهور جيلٍ جديدٍ متخرج من المدارس والمؤسسات الخارجية والعربية ، ومناداتهم بفكرة (النبذ والقبول) ؛ نبذ ما وصفته بالمضر ، و قبول ما كانت ترى فيه خيراً لهم وللأمة الاسلامية ، و بذلك يمكن أن نقول أنه ، بظهور هذا الجيل الواعي ، الذي إنتقى من الموروث و الجديد ، استطاعت الدول العربية والشعب العربي الاسلامي ، أن يرفع هامته مرةً أخرى ، ويستعيد أمجاد الماضي الغابر .

و قد ظهر من بين هؤلاء ، على الساحة الأدبية ، رجلٌ اسمه (علي أحمد سعيد) الملقب بـ (أدونيس) ، لينتقي لنا ما يرى فيه خيراً الماضي ، مستلهماً الحاضر والمستقبل ، من خلال شخصيات رأى فيها الخير ، مستدعياً شخصيات معروفة ، لينتفس من خلالها همومه ، و هموم الأمة ، و يذكرنا بها كي لا ننسلخ من هويتنا ، إذا أردنا أن نعيش حياة كريمة ، وبذلك نحيا بها إذ اشرأبت نفوس الأمة بهم ، و باستدعاء شخصيات كالإمام الحسين (ع) ؛ هذا الرجل الفذ ، و الأبى على مر التاريخ .

ينبهنا (أدونيس) و أمثاله على عدم الركوع أمام الغازي المستهتر بقيمنا ، و العايب بسنن الله ، التي لن تفقد حيويته مطلقاً .

جاءت هذه الكلمات لتقول - للقراء الكرام - أنّ مفعول التراث النابض ، ما زال حياً ، ليغذي حياة الأمة ، فتعيش حياة كريمة .

1-إستدعاءالشخصيات أوالقناع

يعرّف المعجم قناع المؤلف أو ما يعرف بـ (persom) ، بأنه من أصل الكلمة اللاتينية ذاتها ، و قد كان يطلق على القناع الذي يضعه الممثل على وجهه أثناء تمثيل المسرحية ، أما في النقد الادبي ، فيُستعمل لفظ القناع للدلالة على شخصية المتكلم ، أو الراوي ، و قد يكون في أغلب الأحيان هو المؤلف نفسه .

ويذهب الدارسون الى أنّ القناع يمثل (شخصية تاريخية في الغالب) يختبئ وراءها الشاعر ليُعبّر عن موقف يريده ، أو ليحاكم نقائض العصر الحديث من خلالها (1) ، ويزيد بعضهم توظيف القناع تعبيراً عن هموم الشاعر ، وتجربته الفكرية ، أو يعمد على خلق شخصية جديدة تتقمص تلك الإنشغالات والهموم (2) .

أما في ما يتعلق بالشعر العربي فنستطيع القول بأنّ ظاهرة توظيف الرمز الشعري أو (القناع) أخذت في التنامي والإزدياد ، ولم تعد القصيدة كما كانت عليه تقريبية ، تعتمد على فكرة المطابقة ، ومحاكات الواقع بل تجاوزت مرحلة التعبير بالرمز والإيحاء. أما أهم الرموز التي تتضمنها ، فنستطيع حصرها فيما يأتي :
1- الرمز التاريخي 2- الرمز اللغوي 3- الرمز الإسطوري 4- الرمز المكاني (3) .

وقد استطاع شكل القصيدة القناعية الجديدة ، أن يؤثر على حركة الشعر العربي المعاصر وأن يدخل دائرة إهتمام بعض الشعراء والنقاد العرب المعاصرين الذين إندفعوا إليها بدافع ما تميّزت به القصيدة الحرة من إنفتاح لإستيعاب مجالات وظائفة متعددة وفتحت مثاقفات شعراء العرب عند نماذج قصائد الأقتعة ، المجال الرحب لإنتشار هذا الشكل الشعري والتعبيري الجديد.

ولقد مرّت عملية قصيدة القناع شكلاً ومضموناً عند شعراء العرب بسلسلة متصلة من المحاولات و التجارب الشعرية ، أولها تلك المحاولة التي إعتمدت خلق قصيدة التوحّد مع الرمز ، على نحو ما نجده في قصيدتين لـ (بدر شاكر السياب) الذي كان أول من أخذ شكل التوحّد مع الرمز في قصيدتيه (تموز جيكور) و (المسيح بعد الصلب) .

وكانت الريادة في هذا المجال الإبداعي لـ (عبد الوهاب البياتي) الذي يعد أول من مارس كتابة قصيدة القناع ، وخلق شخصياته المقنّعة (4) .

أما (أدونيس) فقد إستعان عبر تجربته الشعرية الطويلة بالإسطورة ، بإعتبارها أداة فعالة تستطيع أن تستوعب شعوره ومعاناته. فلم يكنف الشاعر بالخروج عن الوزن والقافية أو التوقف عند التجديد الشكلي و الثورة عليه بل نجده يجتهد دائماً للبحث عن مصادر الأساطير ، لتشكل له بذلك إنعطافة كبرى ، رؤية خاصة به ، وترتب على ذلك البحث عن رموز ، وأساطير ، وأقتعة ، يجسّد فيها ومن خلالها ، رؤياه و يمنحها شكلاً ملموساً ، لذلك إستقرّ على أنّ التراث العربي الإسلامي غنيّ برموزه ودلالاته وإشارات ، ولهذا نجده يتوغل في التراث العربي الاسلامي توغلاً كبيراً ، لينسج منه بعد ذلك قصائد مشبّعة برموز النفري والحلاج ، والإمام الحسين (عليه السلام) ، وعبد الرحمن الداخل ، وغيرهم (5) . وأن تقنّع أدونيس بهذه الشخصيات المختلفة دفعه الى إحام كلمة (قناع) في سياقات معيّرة عن دلالات نفسية مختلفة مثل قوله في قصيدة (مرآة الحجاج) :

بالسهام وبالقناع

لا بالصوت والكلام .

وفي قصيدة (قناع الأغنيات) يقول:

خلف هذا القناع الطويل من الأغنيات .

وفي قصيدة (الإله الميت) يقول:

اليوم طرحت قناع البيت.

وفي قصيدة (الوطن) يقول:

للاجوه التي تتييس تحت قناع الكآبة

أنحني لدروب نسيت عليها دموعي .

وفي مقطع من قصيدة (الوقعة):

مرّ في أهدابنا وجه المدينة

ضائعاً تحت جليد الأفتعة⁽⁶⁾

ويصل (أدونيس) إلى ذروة التعبير الباطني عن ضرورات تكوين الأفتعة وإحتياجاتها ، موضّحاً السبب

في توظيف القناع ، والذي يختزل الغياب والحضور الزمني بكل إشكالياته وشخصه وأزمنته وأمكنته ،

داخل زمن القصيدة الشعرية ، حين يقول في قصيدة (بابل) :

تَنَلَّمَسُ أفتعة التكوين

ونحضن أزمنة مكسورة⁽⁷⁾.

2- الإمام الحسين (عليه السلام) في شعر (أدونيس)

الحسين سرّالكون والوجود ، إنّه قداسة الطهر ، مُلهم الشعراء بمختلف الأذواق والأطيفاف ، وما بقى

شاعر لم ينهل من عبق شهادته أسمى قوافي العشق على مذبح الشهادة .

أما شاعرنا أدونيس ، فقد ذكره أربعة عشرة مرّة ، حيث يعد الحسين (ع) من أهم الشخصيات الدينية

والتراثية في شعر ادونيس ، وسنكتفي بذكر ثلاثة قصائد هي : (مرآة الرأس و مرآة لمسجد الحسين و مرآة

الشاهد) . ففي هذه القصائد الثلاث القصيرة المنشورة في كتاب (المسرح والمرايا 1968) ، يستعرض (

أدونيس) إحتراماً عميقاً لجسد الحسين بن علي (عليه السلام) الذي يحدهو بالتبجيل ، ينسجم هذا مع تمثّل

الحسين في الرمزية العربية الحديثة . لقد جاء ليشارك موقعاً إفتدائياً ، يختص تموز المسيح كفضيلة لحياته

والنوايا والكلمات المنسوبة إليه من قبّل تراجم الشيعة .

الولاء للحسين ورفضه للظلم أثار الخلاف ، لأنّه يمثل الرّفص للحل الوسط مع الطغيان ، يرحّب بالموت

، ويقاسي العذاب والألم من أجل عقائده .

إنّ موت الحسين على أيدي الأمويين ، له ما يوازيه في صلّب المسيح على أيدي الرومان ، بوصيّة من

المجلس الأعلى اليهودي (SANHDRIN). وما هو شيق في جسد شهيد كربلاء ، إنّه لايبالي بالمصائب مهما

عصفت به، وهذا حافظ قوي وفَعَال ، وكذلك صدىً لرفض (أدونيس) الخاص للقيم العربية التقليدية ،
وأماله المتجددة لمستقبل أكثر عدلاً⁽⁸⁾. يقول أدونيس في قصيدة (مرآة الشاهد) :

وحينما إستقرت الراح في حشاشة الحسين

وإزّينت بجسد الحسين

وداست الخيول كل نقطة من جسد الحسين

وأستلبت وقُسمت ملابس الحسين

رأيت كل حجر يحنو على الحسين

رأيت كل زهرة تنام عند كتف الحسين

رأيت كل نهر يسير في جنازة الحسين⁽⁹⁾.

إنّه شاهد عيان على الشهادة التي لن تجد أزدراءً من قبَل معتقدي الشيعة. إنّ روحية الحسين وطلبه
للخير قد إستقبلت الراح العنيفة ، لالشيء إلّا لطلب الخير وإحياء الدين .

إستحضر (أدونيس) مراسم الندب في عاشوراء ، بترداد إسم الحسين الذي يدويّ كدويّ النحل ،
وينهال إبتهاًلًا بنحيب يفجر على قلبه ما في قرارة نفسه ، ثاقباً كل فكرة ، كما أنّ (أدونيس) يقول في مقطع
من قصيدة (الرأس والنهر) عن رأس مقطوع :

سار أمامي جسدي

أزمنة مداننا تواكب النهر⁽¹⁰⁾.

من الواضح أنّ الرأس الذي هو موضع التساؤل ، والذي يخدمه جسد الحسين الممزق ، يتّرجم
الجواب. ومن المهم أيضاً أنّ نؤكد على رفض الحسين الأبويّ وتخليده في خيال الإنسان في رجوع صدها لدى
أوطان العرب و غير العرب منذ أكثر من (1300) عام على شهادته ، وفي الواقع يمكن تكيفه مع أي كفاح
للتحرر من الحرمان ، و سخط المجتمع الراض والمرفوض كمثل حال الشيعة في لبنان و في العراق⁽¹¹⁾.

إذن شخصية الحسين تأخذ موقعا متمائزا في مسيرة الشهادة تاريخيا وفنيا ، وتحضر كربلاء
كرمز للاسى والجرح و الحزن⁽¹²⁾ . فقد حاول (أدونيس) من خلال هذه القصيدة (مرآة الشاهد) أن يقول
: إنّ النص الشعري لديه تناص مع الحادثة التاريخية التي تروي مقتل الحسين و خذلانه من قبل مؤيديه ، و
ينقل لنا أجواء الجنازة حيث راحت كل الأشياء تشارك في هذا الموقف : الحجر، السماء، النهر الذي يجسد
موقف التعاطف معه، وهذه الحادثة ما هي إلّا تعبير عن الخيانة والقتل وتلاشي المرونة والفضيلة. فقد حاول
(أدونيس) أن يجعل من ثورة الحسين رمزاً للموت والانبعاث وذلك إنّ إحساس الغضب والالم هو حافظ
للناس على الثورة . كما إنّ فلسفة (أدونيس) تقوم على التهديم الكلي ، فهو لا يؤمن بالإصلاح في هذه
الدنيا ، بل يدعو الى التهديم الكلي ، ليؤسس بناءً جديداً ، و يدعوا لمحو الأشياء ليعيد تكوينها .

3- مهبّار الدمشقي :

في أغاني مهبّار الدمشقي يبتكر (أدونيس) شخصية أسطورية خاصة به. هي شخصية مهبّار الدمشقي التي تنطلق بدأ من أزمة الشاعر كفرد يعيش في القرن العشرين ، و يعاني على مستوى ثان تجربة التحول و التحرك التي يعيشها العربي كما يعاني على المستوى الثالث ، أزمة الإنسان ، إذ يواجه المعضلات الكونية.

وهكذا تتلاقى هذه المستويات المتعددة لازمة شخصية (مهبّار) فمهبّار ، ذوهوية متعددة ، متحركة ، مسافرة ، خصيصة لانتهاء البحث الدائم لانتهاء هوية ، تتكوّن و تتكامل ، لذلك إنّ المناخ الذي يسود (أغاني مهبّار الدمشقي) هو مناخ التكوّن ، ثمة شئ ما على شفا التكون أو على شفا الزوال . فمهبّار يرصد حركتين متسالبتين : حركة الولادة و حركة الموت⁽¹³⁾.

منذ أغاني مهبّار الدمشقي بدأت كلمة الرفض سيرورتها في الشعر العربي المعاصر والنسق الذي يسود القوائد جميعها هونسق التكوّن . فأغاني مهبّار الدمشقي تتميز كمضمون و كلهجة من الشعر العربي الحديث الذي تغلب عليه الكلاسيكية ، بمعنى وصف الثابت.

يقول (أدونيس) في (أغاني مهبّار الدمشقي) : فيه تأسست القصيدة القصيرة التي تحتضن العناصر الفكرية بالاضافة الى العناصر التخيلية. والحين في أغاني مهبّار الدمشقي ليس رجوعا الى ماض تاريخي ، إله الحنين الى زمن غائب و شهوة للقبض على حقيقة معذبة ، أبدية الحركة و التحول ، فإنّ هذا الكتاب يعكس أغاني الرفض (و إنّ الرفض هو إنجيلي) ، وفي محاولة التحرر والانتزاع من (أغاني مهبّار الدمشقي) الى كتاب (كتاب التحولات و الهجرة في أقاليم الليل و النهار) ، تتسع الرؤى و ينجلي العنف ؛ وأحيانا لا نسمع انا الصرخات التي تنادي الحريق و الطوفان⁽¹⁴⁾ .

4- صقر قريش

صقر قريش هو عبدالرحمن الداخل الخليفة الأموي ، الذي فرّ من العباسيين الذين أرادوا أن يبطشوا به الى المغرب ثم الى الأندلس ، حيث أسس فيها بمساعدة أخواله دولة عربية اسلامية ، دامت ثمانتي قرون.

يروى لنا عبدالرحمن الداخل قصة هروبه مع أخيه حين وصلا نهر الفرات ، فسبحا ليعبراه الى الضفة الأخرى. فهو يقول : وأقبلت الخيل فصاحوا علينا من الشط : أرجعا لا خوف عليكما. فسبحت وسبح الغلام أخي فالنفت إليه لأقوي من قلبه. فلم يسمعي وإعترّ بأمانهم وخشي فاستعجل الانقلاب نحوهم ، وقطعت أنا الفرات. ثم قدّموا الصبي أخي الذي سار أليهم بأمان ، فضربوا عنقه ، ومضوا برأسه ، وأنا أنظر إليه ، وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، ومضيت الى وجهي ، أحسب إنّي طائر وأنا ساع على قدمي⁽¹⁵⁾ .

وهكذا فجع الصقر بقتل أخيه ، كما فجع بسقوط مجد قومه الأموي ، وفي هذا الأفق الجدلي الحزين ، تقترن الارض التي فتحتها الكتابة بالارض التي سوف يفتحها الصقر، وتوحّد الكونين على أرض باطنية تكشف أعماق الذات والعالم (أندلس الاعماق) .

فسحر الفتح وإرادة بعث الحياة ، تقتضي توحد الذات و الفضاءات ، لذلك تنهض مقابل الأرض العقيم : الجنادب ، الرمل ، النخيل ، الموت ، نضوب المياه ، زهر يابس أرض من أعماق الذات ، تعشق التحول ، تتطلع الى النبوءة ، وإبتداع الغريب والمغايرة ، مصعدةً بذلك التوتر ، وفي الموطن ، يكشف الجوهر الأصيل في جسارة الصقر ، وفعله المعجز. إذ تحمل الجراح وقهر الأهوال ، نذرا لإبتهاج آت ، وحلم مستقبلي ، أدركه فعلا⁽¹⁶⁾.

وذلك هو المسار الذي تترسمه الكتابه في سعيها المحموم لتأسيس كتابة مغايرة محولة ومتحوّلة. تمارس الحفر في الوجدان الفردي والإجتماعي ، وتتوق الى فهم لغات الأشياء : العشب ، النخيل ، الأفق ، هكذا تنتوّع النفاعلات وتتصل ، وفي هذا الكون التخيلي المصغر ، يبعث الأخ المقتول ، وتنفخ فيه (الذات) من روحها ما يعينه على مواصلة الإستبطان والإتحاد بالينابيع .

ومن هنا تحمل الذات همّ التبشير ، بالتحول الخصب ، والتحكم في الأنوار ، إنّ الحلم الواقع الغائب هو إحدى علامات البشرى الموعودة، إذ بالدم تُفتح البوادي والمدائن .

يفنى الصقر ، لكنه يسلم مشعل المغامرة والفتح المستقبلي الى (الذوات) التوائم ، أي الى الصقور التي تحرقها الصبوة ، ويمزقها الحنين الى الإشراق ، وفي هذا الموكب الجنائزي ، تتعالى الأصوات مجتمعة ومنفصلة ، وتتلاشى (الذات) أمام المشهد المرعب لحظة الفقد ، إنه إنتكاس يقتل العقل ، يُقطع رأس الأخ الذي قهره الخوف ، فولى مخدوعاً بأمان الأعداء ، إنها فدية التردد ونقض عهد العبور .

وأمام هذه الفاجعة تنخرط الطبيعة في نعي الفقيد . فترتفع عندئذ بطولته إلى مرتبة المثال الذي ترسم (أنا) الكتابة المأخوذة بهوس الفتح :

عاشق يعشق قلبي

ويغني أغنياتي⁽¹⁷⁾

إنه إغراء الصفاء والطهر، رغبة التوحد بالأرض ، يتحول في بوتقته نهر العبور الى رفيق مصاحب كما تصبح بشائر الرؤيا مريرة :

تتبعني عينان في مجامر السنين

تتبعني الأشجار والرايات⁽¹⁸⁾

إلا أنّ بطلنا لم يفقد أمله بفقد أخيه ، فإنّ الأمل راسخ في قلبه رسوخ الجبال ، وكأني به أرى أن يأخذ إسمه في التاريخ ، ويؤسس دولة تماثل دولة أبائه ، بل تفوقها في المجد ، لنستمع إلى الأبيات التي نعى بها أخاه :

غنيت عن روض وقصر شاهق

بالفقروالإبطان في السرادق

فقل لمن نام على النمارق

إنّ العلى شُدّت بهم طارق

فاركب إليها شبح المضايق

أولى فأنت أزدل الخلائق⁽¹⁹⁾

وهكذا يستغني الصقر عن الروض والقصر الشاهق ، لأنّ نفسه الأبية ، تأبى الخنوع لمثل هذه الدنانات. لذلك يوجّه اللوم إلى كل من يرتضي بالذل والنوم على النمارق ، إذ يعلن أنّ علو الشان والمجد والكرامة ، لا يمكن حصولها إلّا بشيقّ الأنفس وركوب الأهوال ، وإن لم يشد عزمه على مواجهة المصائب والتغلب عليها ، قيل أن تبطش به يكون أزدل ما خلّق الله.

ومن يتهيّب صعود الجبال يعيش أبد الدهر بين الحفر.

لذلك قصد الخوض في تيار النهر الجارف العنيف دون لأي وتردد. إنّه النهر الذي اجتازه سباحة ، هرباً من القتلة ، ليشيّد صرحاً من المجد والعلى . فما أشبه عبور عبد الرحمن الداخل النهر بعبور (علي أحمد سعيد) الحدود السورية ، قاصداً لبنان ، ليبيّن مجده الأدبي والثقافي . فـ (أدونيس) (الإسطورة) بُعث حياً من النار والرماد ، أما عبد الرحمن الداخل ، فقد بُعث حياً من الماء وهو نقيض للنار.

أما القصيدة (تحولات الصقر) التي عالج بها (أدونيس) همومه وهموم الصقر ، فهي تُكشف من خلال الإنتقال بين الضفة والأخرى ، لانتزك مجالاً للغموض بين أمس واليوم ، بين الماقبل والمابعد ، بين الهنا والهنالك⁽²⁰⁾.

ومن المعروف أنّ لكل قصيدة على نحو ما أسطورتها الخاصة ، عبر الإشعاع القوي الذي تعكسه والأراء ، التي تقدم لتفسير ذلك الإشعاع ، مهما كانت حكيمة ، فإنّها تظلّ غير قادرة على إستيعابه إستيعاباً كاملاً.

نجح أدونيس في تعييب نفسه والتاريخ في قصيدة (تحولات الصقر) ، ليخدم فكرة الشاعر ، لأنه كما يقول :
ذو هوية متحركة، مسافرة، لإنهاء البحث الدائم. لأنها هوية تتكوّن و تتكامل.

ومن الضفة الأخرى للنهر ، يقف عبد الرحمن الداخل ، ناطقاً بعدما كادت السهام تصيبه ، وعنف التيار يجتاحه ، إنّه المهاجر الذي بُعث حياً ، فقد نجح في إختبار الماء ، مرتدياً الضوء ، خاصة و أنّ الماء حمّال مركب الموتى ، لكنه أيضاً المطهر ، ففيه يتم العماد ، والوضوء.

إن صقر قریش وإن كان يتحدّر من أعماق الأرومة الأموية ، إلّا أنّ (أدونيس) لم ينص في قصائده التي إتخذ فيها عبد الرحمن الأموي قناعاً ، وهي (الصقر وأيام الصقر وتحولات الصقر) على ما يتصل ببطش الأمويين ، وظلمهم ، وإثما ينصّ على ما يتصل بالمغامرة ، والأمل ، والثورة ، وهي التي تتمثل في شخصية صقر قریش فـ (لأدونيس) نسق ثقافي متحرر ، وفي نفس الحال هو منقاد للثابت ، و هو متحرر منه ، فهو يأخذ من الهوية المرجعية للرمز التاريخي (قناعاً) ، دون الأخذ بعين الإعتبار الإنتماءات الأيديولوجية ، أو التاريخية فـ (أدونيس) - كما قلنا- يحلّ في كل شخصية بإمكانها أن تتخذ قناعاً ، ويعبّر

من خلالها الشاعر عن خواجه وهمومه ، وهي دون أدنى شك هموم أمته. فقصيدته الطويلة (تحولات الصقر-1962) كانت القصيدة الأولى التي تتناول مضموناً فكرياً ، مرتبطاً بالتاريخ العربي الاسلامي ، و قد وظف فيها الشاعر صقر قريش الشخصية الثورية التي عشقت المغامرة ، فوحّدت العرب الذين كانوا قبائل وطوائف ، فصقر قريش في هذه القصيدة ، يجسّد تمزّق العرب وتفقتهم⁽²¹⁾.

وربما لذلك تجنّب (أدونيس) ذكر بطش الأمويين (قوم عبد الرحمن الداخل) ، لأنه رأى أنّ الصقر يمثل نشرذم العرب ، أكثر مما يمثل ظلم قومه ، وهكذا إختار (أدونيس) شخصية الأمير الأموي الدمشقي المولد والمنشأ ، لتكون لسان حاله ، فهذا الأمير المخلوع ، والمطارد من قبل العباسيين ، هو الآخر مزيج غنيّ من الهويات والأمكنة ، وقد هَجَرَ الشام كما فعل (أدونيس)⁽²²⁾ .
لأندلس الأعماق

أندلس الطالع من دمشق

يحمل للغرب حصاد الشرق⁽²³⁾

وفي كتابه (ها أنت أيها الوقت) يشبّه (أدونيس) عبوره الحدود السوريّة – اللبنانية عام (1965) ، بالذي عبر الفرات ، يقول مخاطباً نفسه :

ضفتان وأنت على الجسر الذي بينهما: ضفة ما ينبغي أن ينتهي ولكنه لا ينتهي وضفة ما ينبغي أن يبدأ ولكنه لا يبدأ.....

إنّها لحظة يتعدّر عليّ تقديرها. تلك اللحظة التي كانت كالجسر الذي حملني، ناقلاً حياتي من ضفة الى أخرى، إذ بهذه اللحظة أيضاً يمكن أن تورّخ حياتي⁽²⁴⁾.

وإذا كانت الروايات التاريخية تخبرنا كيف هرب صقر قريش من الشام الى الأندلس ، ليصبح على ضفاف الفرات عندما أقلت من قبضة الجنود العباسيين سباحة الى الضفة الأخرى من الفرات ، ليبدأ مصيره الجديد ، فإنّ هذه الواقعة ستأخذ بعداً جديداً في شعر (أدونيس) عندما تتسلخ من زمانها التاريخي الى زمان الشاعر في شقيه الإبداعي والذاتي ، ولاعجب أن يهدج صوت (أدونيس) ويدمع ، كلما قرأ المقطع الآتي من قصيدة (أيام الصقر):

وافراتاه ، كن لي جسراً وكن لي قناع

وتسرّبتُ

غَيْرَ رَيْنِكِ ياصوت

أسمع صوت الفرات

قريش.....

لؤلؤة تنسج من دمشق

بخبئها الصندل واللبان

أرقُّ ما رَقَّ له لبنان

أجمل ما حدَّث عنه الشرق⁽²⁵⁾

يعيش أدونيس المنبعث من النار مع صقر قريش المنبعث من الماء ، حالة من التداخل والتماهي ، تتجاوز الأمكنة والأزمنة ضمن فضاء القصيدة ، وتسقط عن المدينة أسوارها ، وتستبيحها بنار الشعر الهيراقليطية ، وبعنون الأحلام- الكوابيس ، فإذا بالشاعر يقول جرح المدينة الذي يرفض أبداً أن يغادره ، وفي حالة تشبه الهذيان يقوله بصورة مشهدية ، صارخة ، متفجرة ، هي بالتأكيد من قمم الشعر عند (أدونيس (. إليك بعض المقاطع :

هدأت صيحة الرجوع ، أحلم يا دمشق

بالرعب في ضلال قاسيون

بالزمن الماضي بلا عيون

بالجسد اليابس ، بالمقابر الخرساء

أصيح يا دمشق

موتي هنا وإحترقي وعودي

أصيح لا ، موتي ولاتعودي

أبتها الطريدة المليئة الفخزين يا دمشق

وأمس في نومي يا دمشق

سوَّيت تمثالاً من الصلصال

حفرت في خطوطه البيضاء

تاريخك الأسود يا دمشق

و رحتُ في رعب وفي إبتهال

أسقط كالزلازل

على روابي جَلَّقَ الجميلة

أحضنها ، أضربها ، أغتبي هاها هلا هلال

وقلت لا فلتبق في حنيني

وفي دمعي دمشق

وقلت لا فلتحترق دمشق

وإسنيقت أعمالي القتيلة

مذعورة تصيح يا دمشق⁽²⁶⁾

و (أدونيس) إذ يقسو على دمشق بلسان صقر قريش ، يعرف أيضاً كيف يعتذر منها ، ويقرّ بفضلها .
فمن رحم تجربتها المرّة صنع صقر قريش مجده ، وتوهّجت نار الشعر في قصيدته :

يا حبّ ، لا..... عفوك يا دمشق

لولاك لم أهبط الى الأغوار

لم أهدم الأسوار

لم أعرف النار التي تنادي

تضجّ في تاريخنا،تضيء

سفينة الكون الذي يجيء

عفوك يا دمشق

أيّتها الخاطئة القديسة الخطايا⁽²⁷⁾

لا ندرى إذا ما ارتجفت يدا (أدونيس) وسال العرق من جبينه ، و هو يعطي دمشق جسد القصيدة وألقها
في ديوان صقر قريش . لكن هذا الديوان هو التجارب الوجودية العميقة في مسار أدونيس الشعري التي
ستترك أثرها ليس فقط على شعره ولكن على علاقته المستقبلية بدمشق⁽²⁸⁾ .

بعد ديوان صقر قريش ستحرر دمشق من الرموز الإسطورية التي تلتقي عندها جميع الحركات وتصدر
عنها أغلب الأفعال .

قد مهّد (أدونيس) لقناعه بثلاث عشرة مقطوعة قبل الوصول الى القصيدتين اللتين إستخدم فيهما
تقنية القناع ليحكي إسطورة الصقر:

يبني على الذروة في نهاية الأعماق

أندلس الأعماق

أندلس الطالع من دمشق⁽²⁹⁾

إن تماهي (أدونيس) بصقر قريش مشهود بكل وضوح . فعلى الرغم من أنّ (أدونيس) في توظيفه
صقر قريش الأموي يخالف مذهبه - كما قلنا سابقاً - فإنّ تماثل حياة الإثنين أوجب عليه هذا التوظيف ، فقد
هرب (أدونيس) من بلاده لأنه كان مطلوباً فيها الى لبنان ، ليبنى مجده الأدبي ، مات (علي أحمد سعيد)
وبعث من رماده (أدونيس) كما مات الصقر على ضفة الفرات ، لكنّه بعث على ضفته الأخرى بعد صراع
طويل مع تيار النهر الجارف والسهم المسددة نحوه ، ليحيى مجد أجداده⁽³⁰⁾ .

الملخص

هناك دوافع وحوافز، تدفع الشعراء والأدباء بأن يتقمصوا شخصيات فراراً من البطش والكبت والإضطهاد القائم على رؤوسهم ، فباستدعاء الشخصيات التي تقمصوا بها ، انفجرت على ألسنتهم وقلوبهم أشعار نادوا بها ضميرهم وضمير الأمة ، كي يفيقوا من سباتهم ، ويكسروا قصبان الزنانات التي تحبس الكلمات والجسد ، منوّهين بمجدهم الغابر، برهاناً على وجود الأمة وتراثها العريق ، الذي طمستها عجرة السطوة والسلطان .

الهوامش

1. ينظر : إتجاهات الشعر العربي المعاصر ، إحسان عباس، ص 145.
2. المصدر نفسه ، ص 146.
3. ينظر : الحدائث في الشعر العربي، سعيد بن زرقعة ، ص 287.
4. ينظر : إتجاهات الشعر العربي المعاصر، إحسان عباس ، ص 145.
5. ينظر : الحدائث في الشعر العربي، سعيد بن زرقعة ، ص 290.
6. ينظر : أغاني مهيار دمشقي .
7. ينظر : أغاني مهيار دمشقي .
8. ينظر : الحدائث في الشعر العربي، سعيد بن زرقعة ، ص 287.
9. الأعمال الكاملة، أدونيس ، 1970.
10. المصدر نفسه .
11. ينظر : مجلة الفصول – الأفق الأدوني، ص 89.
12. ينظر : الرموز التراثية العربية في الشعر العربي الحديث - خالد الكركي –ص183.
13. ينظر : حركية الإبداع، خالدة سعيد، ص 178.
14. المصدر نفسه ، ص 180.
15. انظر : الأعمال الكاملة، أدونيس ، 1970.
16. ينظر : زهرة الكيمياء، عبدالكريم حسن ، ص 130.
17. انظر : الأعمال الكاملة، أدونيس، 1970.
18. انظر : الأعمال الكاملة، أدونيس، 1970.
19. ينظر : الأعمال الكاملة ، أدونيس ، 1970.
20. ينظر : مجلة الفصول، الأفق الأدوني، ص 91.
21. ينظر : بنية القصيدة القصيرة في شعر أدونيس ، على الشرع ، ص 12.
22. ينظر : الحدائث في الشعر العربي أدونيس : نموذجاً ، سعيد بن زرقعة، ص 136.
23. كتاب التحولات والهجرة في أقاليم الليل والنهار ، أدونيس .
24. كتاب : ها أنت أيها الوقت، أدونيس .
25. كتاب التحولات والهجرة في أقاليم الليل والنهار ، أدونيس .
26. كتاب التحولات والهجرة في أقاليم الليل والنهار ، أدونيس.
27. المصدر نفسه .
28. ينظر : في بنية الشعر العربي المعاصر- محمد لطفي اليوسفي - ص 125.
29. كتاب التحولات والهجرة في أقاليم الليل والنهار ، أدونيس.
30. كتاب التحولات والهجرة في أقاليم الليل والنهار ، أدونيس ص126.

Abstract

Persona I literature is one of the different tools of expression .it can represent the cruelty and injustice elaborates the society .it also can be considered as a bridge that connect the children of a nation to their own heritage and civilization so doubtlessly poet and literary scholars have been encouraged to use it as an expression way of pains and difficulties of the society .they also use historical characters to be safe against dictators.

المصادر

1. عباس، احسان، اتجاهات الشعر العربي المعاصر، المجلس الوطني للثقافة والفنون و الآداب، الكويت، ط 1، 1978.
2. ادونيس، أغاني مهيار دمشقي، بيروت، دار الآداب، 1988.
3. مجلة الفصول، الأفق الأدوني، المجلد السادس عشر، العدد الثاني خريف 1997.
4. الكركي، خالد، الرموز التراثية العربية في الشعر العربي الحديث، دار الجيل، بيروت، ط 1، 1989.
5. سعيد، خالدة، حركية الإبداع، دار الفكر، ط 3، 1986.
6. ادونيس، الأعمال الكاملة، دار العودة، بيروت، 1970.
7. حسن، عبد الكريم، زهرة الكيمياء، دار الجيل، بيروت، مايو 1989.
8. الشرح ، على، بنية القصيدة القصيرة في شعر أدونيس، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1987.
9. بن زرقة، سعيد، الحداثة في الشعر العربي أدونيس نموذجاً، دارالجيل، بيروت، 1990.
10. اليوسفي، محمد لطفي، في بنية الشعر العربي المعاصر، دار سراس، تونس، 1989.
11. ادونيس، كتاب التحولات و الهجرة في اقاليم الليل و النهار، دار العودة، بيروت، ط 2، 1971.
12. ادونيس، ها انت ايها الوقت، سيرة شعرية ثقافية، دار الآداب، بيروت، 1993.